لغة القرآن الكريم

لقد ألفت كتب كثيرة ، وكتبت بحوث عدة ، في لغة القرآن الكريم ، وفي هذه الكتب والبحوث عدّد الدارسون الكلمات التي يظن انها من غير لغة العرب ، وتناولوها بالدرس والتحليل والمناقشة حتى توصلوا إلى الأحكام التي أثبتت أن كل ما في القرآن الكريم إنما هو من لسان العرب ، مما تحدثوا به وتعارفوا فيما بينهم عليه

بقلم : عودة أبو عودة

ومن العلماء الذين ناقشوا هذه القضية في القديم أحمد بن فارس في كتابه « الصاحبي » حين كتب فصلاً بعنوان : « القول في اللغة التي نزل بها القرآن » قال فيه : « والصواب من ذلك عندي - والله اعلم - مذهب فيه تصديق القولَيْن جميعاً .

ومن ذلك أن هذه الحروف واصولها اعجمية - كما قال الفقهاء - إلا انها سقطت إلى العرب فأعربتها بألسنتها ، وحوّلتها عن الفاظ العجم إلى الفاظها فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب فمن قال : إنها عربية فهو صادق . ومن قال : اعجمية فهو صادق »[1] .

وقد تحدث الإمام السيوطي عن هذه القضية في كتابه « الإتقان في علوم القرآن » فقال : (اختلف الأئمة في وقوع المُعرَّب في القرآن . فالأكثرون ومنهم الشافعي وابن جرير وابو عبيدة والقاضي ابو بكر وابن فارس على عدم وقوعه لقوله تعالى﴿ قُرْآناً عَرَبِياً ﴾﴿ ولَوْجَعَلْنَاهُ قُرْآناً اعجمياً لَقَالُوا لولا فُصِّلتْ آياتُهُ أَأَعْجَمِيٌ وعَرَبيٌ﴾(فصلت : ٤٤) وقال ابن جرير : ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير الفاظ من القرآن أنها بالفارسية والحبشية والنبطية او نحو ذلك ؛ إنما اتفق فيه توارد اللغات ؛ فتكلمت بها الفرس والعرب والحبش بلفظ واحد .

وقال غيره : بل كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم بعد مخالطة لسائر الألسنة في أشعارهم ، فَعَلِقَتْ من لغاتِهم الفاظ غيّرتْ بعضها بالنقص من حروفها واستعملتها في اشعارها ومحاوراتها ؛ حتى جرت مجرى العربي الفصيح ، ووقع بها البيان ؛ وعلى هذا الحد نزل بها القرآن .

وذهب آخرون إلى وقوعه فيه ، واجابوا عن قوله تعالى (قرآناً عربياً) بأنّ الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تُخرجه عن كونه عربياً .[2] .

ويدل هذا العرض للإمام السيوطي على أن الصورة التي نوقشت بها قضية الأعجمي في القرآن لم تؤد بالباحثين إلى حل علمي حاسم ، ويلاحظ ذلك في معظم الأقوال التي وردت حول هذا الموضوع ، منها راى أبي منصور الثعالبي الذي خصص باباً « فيما يجري مجرى الموازنة بين العربية والفارسية » عقد خلاله فصلاً في سياقه أسماء تفردت بها الفرس دون العرب ؛ فاضطرت العرب إلى تعريبها ، أو تركها كما هي[3] » .

ويذكر من تلك الأسماء : الطبق والسندس والمسك والكافور ، ثم جعل فصلاً آخر فيما نسبه بعض الأئمة إلى اللغة الرومية ، ويذكر منها : الفردوس والقسطاس والميزان والقنطار ، ورغم ذلك فإن هذا المؤلف يذكر في مقدمة كتابه ذاك : ان « من احب الله أحب رسوله المصطفىﷺ ، ومن أحب النبي العربي احب العرب ، ومن احب العرب احب اللغة العربية التي نزل بها افضل الكتب على افضل العجم والعرب[4] » .

وهكذا يقرر ابو منصور الثعالبي عروبة لغة القرآن بعد ما اورد عدة فصول في تعدد

الأسماء التي هي من أصل فارسي أو رومي أو غيرهما ، كأنما يرى : أن ورود ألفاظ محدودة من غير العربية لا تخرج لغة القرآن الكريم عن العربية ، ويشبه رأي الثعالبي هذا ما يروى عن الإمام الشافعي في قوله : « فعلى كل مسلم أن يتعلم لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد ، وغير ذلك ، ومهما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته وأنزل به آخر كتبه كان خيراً له[٥] » .

باحثان معاصران يعالجان هذه القضية

إن المناقشات السابقة ، والآراء المقتطفة من آراء بعض العلماء السابقين تدل على أن القضية لا تزال تنتظر حلاً علمياً موضوعياً يقوم على دراسة لغوية جادة .

وقد قام بهذه المحاولة باحثان في العصرالحديث ؛ أحدهما الأستاذ / عباس محمود العقاد ، الذي ناقش هذه القضية خلال ردّه على المستشرق « مانيز » أحد أساتذة الدراسات الشرقية في المانيا ، وكان هذا قد أثار في إحدى محاضراته عن القرآن موضوعاً اعتبره نقطة ضعف وتناقض في محتوياته ، إذ يقول « إن بالقرآن بعض الكلمات غير عربية الأصل مثل : ﴿ هَيْتَ لك ﴾ في سورة يوسف و ﴿ فاكهةً وأبّاً ﴾ في سورة عبس .[٥] » .

ويقول « العقاد » في ردّه على هذا المستشرق : « نستغرب أن يصدر هذا الرأي عن عالم متخصص بالدراسات اللغوية ، فإنه خليق به أن يعلم قبل كل شيء أن اللغة الحية الواسعة تشتمل على ألوف من الكلمات لا ترجع بالبداهة إلى مصدر واحد ، سواء قصدنا بالمصدر مكان النشأة ، أو قصدنا به السلالة البشرية ، ويصدق هذا على الألمانية ، كما يصدق على جميع لغات العالم ؛ اذ توجد في اللغة ألوف من الكلمات تدخل في الألمانية ، كما تدخل في السنة الأمم الهندية الأوروبيّة على تعددها وتباعد أوطانها ، ولا ينتظر أن اللغة العربية على غير هذه القاعدة المطردة في كل موقع وفي كل سلالة[٧] » .

ثم يضيف « العقاد » قائلاً : فلم يكن أحد ليفهم من وصف القرآن الكريم بالكتاب العربي المبين : أن كلمات اللغة العربية وقف على الأبناء والآباء والأجداد الذين يحملون شهادة ميلاد عربية منذ أول عهود النطق بالكلمات الإنسانية ؛ إذ ليس في وسعنا أن نتخيّل هذه النشأة اللغوية - المقفلة بين أهلها - ولو على سبيل الفرض والتخمين ، ولكننا نفهم أن القرآن الكريم سيكون عربياً على الوجه الوحيد الذي يمكن أن تتحقق به هذه الصفة ، أو تتحقق به الصفة العربية في عقل من العقول ، وهي الصفة التي تصدق على اللسان كله ، وكيفما كانت المفردات التي جرى بها ذلك اللسان[٨] .

وواضح أن الرأي الذي شرحه « العقاد » هنا هو الرأي الذي قرره أحمد بن فارس قبل اثني عشر قرناً من الزمان ، وهو أن الكلمات تخضع للبيئة اللغوية التي تعيش فيها وتشيع على ألسنة أصحابها .

أما الباحث الثاني فهو الأستاذ الدكتور / عبد الصبور شاهين ، الذي درس المشكلة في إطار القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ، وقد خصص المؤلف في كتابه هذا باباً وافياً لمناقشة الألفاظ الأعجمية في القرآن الكريم ، وقد رتب المشكلة على شكل فصول متتالية ، جعل الفصل الأول منها في « مادة البحث » والفصل الثاني في « مشكلة الأصل الأعجمي ومفرداتها »[٨] . وفي هذين الفصلين عدّد المؤلف الوجوه الواردة فيما قيل بأعجميته ، ثم بيّن عناصر المشكلة ومادّتها ، وقسم الألفاظ الأعجمية إلى مجموعات حسب اللغات التي نسبت إليها . ويهمنا - في هذا البحث القيم - الحل الذي قدّمه المؤلف لقضية وجود الأعجمي في القرآن الكريم ، وبين يدي رأيه هذا عالج الدكتور / عبد الصبور شاهين الآراء الكثيرة التي قيلت في شأن لغة القرآن ، سواء من قال بعدم وقوع المعرب فيه ، ومن قال بوقوعه .

ثم انتقل إلى الدراسات الحديثة ، فبين بعض الآراء التي انتصرت لكل فريق من القدماء ، ولكنه عندما بدأ معالجة القضية معالجة علمية موضوعية قسم الألفاظ التي قيل بأعجميتها إلى مجموعات حسب اللغات التي انتقلت منها الكلمة إلى لغة العرب . ووجد أن المجموعة الرئيسة هي الألفاظ المأخوذة من اللغات السامية الأخرى كالحبشية والسريانية والعبرية والنبطية .

وفي البداية وضع المؤلف بعض القواعد الهامة التي يجب ملاحظتها عند النظر في هذه المشكلة ، يقول « وإنما ينبغي أن نعلم ابتداءً أن استعارة لفظ من لغة إلى أخرى

■ لم يكن أحد ليفهم من وصف القرآن الكريم بالكتاب العربي المبين أن كلمات اللغة العربية وَقْف على الأبناء والآباء والأجداد الذين يحملون شهادة ميلاد عربية منذ أول عهود النطق بالكلمات الإنسانية ؛ إذ ليس في وسعنا أن نتخيل هذه النشأة اللغوية المقفلة بين أهلها ■ [العقاد]

لغة القرآن الكريم

معناه وجود علاقة بين لغة سابقة واخرى لاحقة ، او لغة ماخوذ عنها واخرى آخذة ، والحكم بقدم لغة وحداثة اخرى وبخاصة في مجالات اللغات العريقة ، جد عسير ، كما ان الحكم بالأخذ يحتاج إلى كثير من المقدمات العلمية الضرورية ، مع تقريرنا ان مبدأ الأخذ او الاستعارة مسلّم به بين اللغات ، وبرغم هذا نتساءل : إلى أيّ مدىً يمكن أنْ نعتبر لفظة معينة ملكاً للغة دون اخرى ؟ ، سواء أكان ذلك في نطاق الفصيلة اللغوية ، ام تعدّاه إلى لغات من فصائل اخرى ؟ »[٩] .
ولهذا اهتم المؤلف بتحليل العلاقة بين العربية ، وبين اخواتها الساميات ؛ من حيث القدم والحداثة والتاثير والتاثر ، وما إلى ذلك من قضايا لغوية اخرى .

وناقش في هذا المجال كلام المستشرق « نولدكه » في كتابه « اللغات السامية » ، وانتهى : « إلى ان علاقة العربية باخواتها الساميات علاقة فرد باسرة لغوية واحدة ، ومن الطبيعي ان يحمل هذا الفرد موروثات اسرته وخصائصها التكوينية ، بيد ان هذه القرابة اللغوية لا تعني مطلقاً التبعية اللغوية ، او بعبارة اخرى البنوّة اللغوية ، فليس هناك لغات أمهات ولغات بنات ، ولا يتاتى لإحدى اللغات ان تلد لغة اخرى . وعلى هذا يمكن القول بان اغلب الألفاظ المشتركة بين العربية واخواتها هي الفاظ سامية ، للعربية فيها ما لأخواتها ، فهي الفاظ سريانية ، وهي عبرية ، وهي حبشية ، وهي عربية ايضاً . ويصدق هذا الرايُ بخاصة بالنسبة إلى الألفاظ التي اتخذت في العربية صورة لغوية خاصة ، اي تلك التي خضعت للقوانين الصوتية والصرفية العربية ، بحيث قد امتاز وجودها العربي عن وجودها في اللغات السامية الأخرى »[١٠] .

واعتقد ان هذا الراي قد حلّ معظم المشكلة ، وينضوي تحت لوائه جلّ المفردات التي قيل باعجميتها ، وتبقى بعد ذلك الألفاظ المنسوبة إلى المجموعة الهندية الاوروبيّة ؛ اى الألفاظ المنسوبة إلى الفارسية او اليونانية ، كذلك الألفاظ المنسوبة إلى المجموعة الحاميّة ، اي الألفاظ المنسوبة إلى القبطية والبربرية ، ثم الألفاظ المنسوبة إلى المجموعة الطورانية وهي لفظة وحيدة منسوبة إلى اللغة التركية ، وكل الألفاظ المقول باعجميتها في هذه المجموعات الفاظ قليلة جداً بالقياس إلى ما ورد في المجموعة السامية .

ويرى الدكتور عبد الصبور شاهين : ان الفصل في بيان علاقة اللغة العربية بهذه اللغات هو تحقيق وجود اللفظة العربية بمعناها في اصل كامل التصرف ، وإلا فيحتمل ان تكون من باب الدخيل ، كما يحتمل ان تكون ذات اصلٍ ممات في العربية ، وإن كان من الصعب ان يقوم على ذلك دليل[١١] .

ويرى الباحثون في هذا المجال ان اللغات السامية وجاراتها من اللغات الأخرى قد تبادلت الألفاظ في عصور متطاولة قبل نزول القرآن بتعبير ادق ، فدخل في الفارسية مثلا الفاظ سامية[١٢] ، وعلى هذا القياس يمكن ان تكون الألفاظ السامية قد دخلت في اليونانية او القبطية او البربرية .

وبناء على ملاحظة الدكتور/ عبد الصبور شاهين يمكن الاطمئنان إلى عروبة اللفظ عندما يكون كامل التصرّف ، اما إذا كان غير ذلك ربما كان لفظاً اعجمياً .

على ان هذا المقياس في عروبة اللفظ او عجمته يدعمه مقياس آخر ، نسبه المؤلف إلى الراغب الأصفهاني ، في كتابه الجيد : « المفردات في غريب القرآن » ، وهو نسبة شيوع اللفظ في العربية ؛ فإذا شاع استعماله في نصوص جاهلية كان ذلك دليلاً على عروبته ، وإذا قلّ كان لا بدّ من اعتباره لفظاً اعجمياً ، ويصف المؤلف هذا المقياس الثاني انه لابد لبلوغه من إحصاء دقيق لوجود اللفظ في النصوص القديمة ، بحيث يستخرج من مظانّه كلّها ، وهو عملية شاقة لمن يريد ان يقوم بها[١٣] .

الفاظ قيل بعجمتها شاعت بين العرب حتى أصبحت عربية

وقد يسر الله عز وجل لي ان اقوم بهذا القياس الذي اقترحه الراغب الأصفهاني في كتابه الكبير « المفردات » ، فكتبت بحثاً حول « التطور الدلالي بين لغةالشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم[١٤] ؛ قدمت فيه الدليل الكافي على عروبة لغة القرآن ، وعلى ان هذه الألفاظ التي قيل بعجمتها هي الفاظ عربية ، لأنها شاعت في لغة العرب ، وخضعت لمقاييسهم اللغوية ، وهي وإن كانت في الأصل الفاظاً اعجمية ، إلا انها اصبحت الفاظاً عربية بناءً على ماقرره علماء اللغات ، من تبادل اللغات بعضها مع بعض في مبدأ التاثير والتاثر نتيجة الظروف الكثيرة التي تجمع بين الشعوب[١٥] .

القرآن الكريم راعىٰ إحساس العربي الدقيق بلغتـه

وقد اجتهد العلماء في إيراد الشواهد الكثيرة على ان القرآن الكريم نزل ايضاً وفق إحساس العربي الدقيق بلغته . ومطابقاً لما كان يجري بينهم من عادات واعراف لغوية او

■ على كل مسلم أن يتعلم لسان العرب ما بلغه جهده ؛ ومهما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوّته ﷺ وأنزل به آخر كتبه كان خيرًا له ■

نفسية او اجتماعية . فقد روي ان قارئاً كان يقرأ قوله تعالى﴿ فإن زَلَلْتُم مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ البيناتُ فاعلموا انَّ اللّهَ [غفور رحيم]﴾ فسمعه اعرابي لم يكن على علم بالقرآن فقال : إن كان هذا كلام الله فلا ، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل لانه إغراء عليه . وصدق حسُّ الاعرابي فإن ختام الآية﴿ فاعْلَمُوا انَّ اللّهَ عزيزٌ حكيمٌ﴾ [١٦] وكذلك ما يروى عن احد المسلمين انه لما سمع قوله تعالى﴿ فَلا وربِّكَ لا يُؤمِنُونَ حتىَّ يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينهم ثم لا يَجِدُوا في انفُسِهِمْ حرجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تسليماً﴾ (النساء : ٦٥) علق على البديهة قائلا : ومن اغضب الرحمن حتى يقسم ؟ !

وقد وردت في كتب اللغة ومصنفات التفسير عشرات الأمثلة تشهد على ان العربي كان يتذوق لغة القرآن ، وكان كلماتها تسري في جسده فيتفاعل بها إحساسه وروحه ومشاعره ويتاثر بها تاثراً كبيراً . وقصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه معروفة ، وقصة الوليد بن المغيرة حين ذهب إلى النبيﷺ بوجهٍ وعاد إلى ناديه وقد ملاه التاثر والرهبة بعد ان سمع من النبي آيات من القرآن الكريم ، هي كذلك قصة معروفة مشهورة ، وكذلك ما يروى عن بعض المشركين مثل ابي سفيان - رضي الله عنه قبل إسلامه - وابي جهل : انهم كانوا يتسللون في ظلام الليل إلى حائط بيت الأرقم رضي الله عنه ليسمعوا آيات القرآن الكريم .

إن هذا التاثر دليل على فهم العربي للغة القرآن ، او شاهد على نزول القرآن بلغة العرب ، ولولا ذلك لما كان له هذا السحر وهذا التاثير ، واكثر من ذلك فقد خاطب القرآن الكريم العربي بعاداته الاجتماعية السائدة ، ومن اشهر ما يروى في التدليل على ذلك ما فسّروا به عدم بدء سورة التوبة بـ : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، كما تبدا جميع سور القرآن الاخرى ؛ فقالوا : إن العربي عندما كان يريد ان ينهي عهداً بينه وبين آخرين ، كان يرتفع على نشز من الأرض ، ويبدا حديثه مباشرة بما جاء به ، لا يبدا بتحية ولا بمقدمة ، ولا بسلام ، ولا باي شيء آخر مما كان يبدا به في مناسبات اخرى ، إنما كان يقول مثلا : « يابني فلان قد رددت عليكم عهدكم » ، وهكذا فعل القرآن الكريم ، فإنه دون بسملة في سورة التوبة قال الله عز وجل﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ ورسولِهِ إلى الذينَ عَاهَدتُّم مِّنَ المشْرِكِينَ ﴾

وقد صور القرآن الكريم ما يعتري نفوس الناس وحالاتهم في المواقف المختلفة ، ادق تصوير ، بكلمات دقيقة تحمل كل منها معناها حتى لو كان الاختلاف بين الكلمات في حرف واحد ، كما في كلمتي إهطاع وإهراع . وقد ورد عن العرب بقولهم : لا يقال للإسراع في السير إهطاع الا إذا كان معه خوف ، ولا إهراع إلا إذا كان معه رعدة[١٧] . ويلاحظ هذا الاختلاف في المعنى عند قراءة قول الله عز وجل﴿ خُشَّعاً أبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِن الأجْدَاثِ كأنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ . مُهْطِعِينَ إلى الدَّاعِ يقولُ الكافِرونَ هَذَا يومٌ عَسِرٌ ﴾ (القمر : ٧ - ٨) ومقارنة بقوله تعالى﴿ ثم إنَّ مَرْجِعَهُمْ لإلى الجحيمِ . إنَّهم ألْفَوْا آباءَهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ على آثارِهِمْ يُهرعونَ . ولَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ اكثَرُ الأوَّلِينَ﴾ (الصافات : ٦٨ - ٧١) .

ولعل خير دليل على العروبة الكاملة للغة القرآن هو ما يستمد من القرآن نفسه ، فتحدي القرآن الكريم للعرب ان ياتوا بمثله دليل اكيد على انه نزل بلغتهم ، وهذا ما اشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً اعْجَمِياً لقالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آياتُهُ أاعجميٌّ وعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ للذينَ آمَنُوا هُدىً وشفاءٌ والذينَ لا يُؤْمِنُونَ في آذانِهِمْ وَقْرٌ وهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً اولئكَ يُنادَوْنَ مِن مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت : ٤٤) .

صدق الله العظيم .. ذلكم هو قول الله عز وجل في كتابه الكريم ، وهو سبحانه وتعالى اصدق القائلين .

الهوامش

(١) الصاحبي : ص ٢٩ .
(٢) الإتقان في علوم القرآن : ١ / ١٣٥ .
(٣) فقه اللغة وأسرار العربية ، ص ٤٥٣ .
(٤) المرجع السابق .
(٥) مجلة اللسان العربي ، المجلد السابع ، الجزء الأول ، يناير ١٩٧٠ ، ص ١٠٧
(٦) يوميات ، ج ١ ص ٢١٧ .
(٧) المرجع السابق : ص ٢١٧
(٨) المرجع السابق ص ١٢٨ .
(٩) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ، القسم الثاني ص ٢٩٥ وما بعدها .
(١٠) المرجع السابق ، ص ٣٣١ .
(١١) القراءات القرآنية ، القسم الثاني ، ص ٣٣٣ .
(١٢) المرجع السابق ، ص ٣٣٤ .
(١٣) المرجع السابق .
(١٤) القراءات القرآنية ، القسم الثاني ، ص ٣٤٣ .
(١٥) نشرته مكتبة المنار بالزرقاء ، الأردن ، عام ١٩٨٥ .
(١٦) يراجع : فصل لغة القرآن في كتاب التبيان في علوم القرآن ، ص ٢٢٥ .
(١٧) مجلة الوعي الإسلامي ، العدد ٦٨ ، اكتوبر ، ١٩٧٠ ، ص ٢٧
(١٨) فقه اللغة : ٥٥ .